الغنـــــاء والموسيقى

وحالهما فى مصر والغرب

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ١ —

هذه أولى أربع كلمات فى الغنــاء والموسيقى ، وحالها فى مصر والغرب ؛ وهى ملاحظات عامة لم يُقصد بها إنسان معيَّن ، وليس فيها محازبة لمذهب خاص ، وعرضُها قد لا يخلو من فائدة

ذانك الفنان يجوز اعتبارهما من وجهين : القواعد الفنية[1] ؛ وبواعث الطرب الراجعة إلى ماهية الموسيقى والغناء الأصلية ، أى الدلالة الصوتية على الأحاسيس والخواطر[2]

فالغناء تطريب فى الصوت فى كلام المغنى . والكلام العادى كلمات تدل بذواتها وبنسقها على خواطر وأحاسيس تتلوَّن فيه تلونَ الحال الفكرية النفسية فى المتكلم ؛ فيتلون صوته بالطبع والتبنية إذ يحدث فيه نبرات متفاوتات ، ويجرى فى سرعة وبطء وخطف ووقف ، وذلك كله يقوى دلالات الكلمات والسياق على الخواطر والأحاسيس ، لأنه يزيدها وضوحاً وتأكيداً من حيث لا يشعر المتكلم . فهذا الذى يَحدث فى صوته دلالةٌ صوتية تصاحب الدلالة الكلامية ؛ وهى ماهية الإلقاء ، وقد تكون أصدق من دلالة الكلام الذى تصاحبه : فى مثل عبارة معناها ثناء تلقى بصوت يدل على أن المراد بها مُزاح ساخر ؛ وفى مثل قول غاضب لمغضوب عليه : تفضَّل ، بصوت يعنى الطرد مع أن الكلمة مستعملة فى التكريم

وما الغناء ، على الإجمال ، إلا تطريب يُعلى تلك الدلالات الصوتية فى اللحن المطابق لمعانى كلام الأغنية ، ولمقتضى المقام المعين بهذه المعانى ؛ فتعلو الدلالات درجات متفاوتات على مستوياتها فى الكلام المتَغَنَّى به لو أن صاحبه الفرضى تفوَّه به ، من غير تطريب ، فى ذلك المقام . يؤيد هذه الحقيقة أن الأغنية إذا جاد لحنها ، وأجاد غناءها صوت حسن موافق ، كانت معانيها أعظم وقعاً عند السامع منها إذا هو قرأها هادىء النفس ، أو سمعها مقروءة بلا ترنيم ولا ترتيل . فمن أين تعلو عنده منزلة هــذه المعانى والأغنية واحدة على كل حال ؟ أفلا نرى أنها تشرف بتقوية الدلالة الصوتية المبينة من معانى الكلام وعن حقيقة المراد به ؟ ليس شك فى أن السر والسبب المهم هو تقوية هذه الدلالة ، والأمر صحيح واضح لا فى الغناء وحده بل فى الخطابة والتمثيل أيضاً

تلك الدلالات الصوتية تصاغ فى نغمات متوافقات محكمات على ضوابط فنية ، لتنسجم بالإيقاع فى لحن يبرز معانى الكلام المغنى به، وعلى قدر المطابقة الواقعة بين نص الدلالات، أى معانى اللحن ، وبين معانى هذا الكلام يطيب الغناء ولو لم يكن صوت المغنى من أجود الأصوات

* * *

بديهى أن الملحن لا ينطق بالكلام المراد تلحينه ، ولا يستعين أحداً ينطق به أمامه ، كى يلاحظ ما يقع فى مثل هذا النطق من دلالات صوتية ليرقيها فى نغمات يصوغها لحناً ، لكنه إذا كان حقاً فناناً حقيقياً فإنه يتفهم ما فى ذلك الكلام من مقاصد وأغراض ، ناظراً فى دقائق ما يكسوها من معارض وأثواب ؛ ويتأمل ما يصور من صور حتى يتوهمها أمام ناظريه ، وحتى تستقر فى بصيرته

---

(١) كالسلم والمقامات ، ومواقع النغمات على المعازف ، والايقاع وضبط الأوزان ، وقياس الألحان بالنك والدم ، أو بالنوتة وما إلى ذلك .

(٢) هنا يحسن التنبيه على الرأى العلمى القائل بأن الأحاسيس يردها التحليل للتداعى إما إلى غريزة حفظ الذات ، وإما إلى غريزة حفظ الجنس ، كما يرد إليهما سائر الغرائز ؛ وإن الغرائز والأحاسيس أصلهـا معقولات كثر ترددها فى الذهن وسلوكها مجاريها العصبية حتى استحالت غرائز وأحاسيس ؛ وأن المعقولات والأحاسيس فى الحقيقة يلازم بعضها بعضاً فى العقل الباطن ، لأنها من حياة النفس الكلية والنفس واحدة ، وحركاتها متصلة من طريق التداعى وإن بروا ظواهرها ، وميزوا بكل باب ملسكة من ملكاتها ، تسهيلا لدراستها وتحليل أحوالها .

وعقله الباطن ، وما تصف من أحوال نفسية حتى يجدها كأنها فى نفسه هو ؛ ثم يأخذ فى التلحين متى تهيأت له ملكاته ، فيأتى اللحن بطبيعة الحال حاملاً تلك الدلالات ، مطابقاً بها معانى الكلام على قدر حساسات الملحن وحسته ، ومواهبه ومحصوله الثقافى ؛ وإذا كان الكلام أغنية من إنشائه ، فقد يكون أقرب إلى السداد فى إنشائه لحناً لها

وشأن المغنى فى التمكن من اللحن وتجويد غنائه شأن الملحن فى تلحينه[1] ، وذلك هو الأساس والصراط المستقيم إلى الإجادة يهديهما إليه الطبع ونصيبهما من تحصيل أصول الفن ومن فهم معناه ، ومن لم يهتد إليه ويوطد صنيعه على هذا الأساس المتين جاء بشىء غير طائل

أما الموسيقى ، ففيها الدلالات الصوتية المصوغة فى اللحن الذى يخرجه العازفون من المعازف ؛ وهذه الدلالات أملتها نفس ملحنه ، إما أخذاً عن أحاسيس وخواطر تضمنها الكلام الذى أنشأ له اللحن ، وإما تعبيراً عن حسها الذاتية حين تيقظت فيها ملكة التلحين ، وهى حالة استكنت فى أعماق تلك النفس بواعثها من خوالج صاحبها فى مدى حياته ، ومن أخيلته وخواطره إزاء ما شاهد فى دنياه وما أدرك من الكون بشعوره وعقله أو بفضل غيره[2]

تلك الدلالات تؤديها معازف تختص بها ، معازف يحدث من تناسق أنغامها السياق الأساسى فى اللحن بينما ترسل معازف أخرى أنغاماً مساعدة ، تتلبس به متنوعة فيه ، متفاوتة ارتفاعاً وانخفاضاً ؛ فهذه تصاحب السياق الصوتى الأصلى وتزينه بتلوينها الملائم ، إذ تجرى معه مؤتلفة ، كصورة الظل مع صاحبه ، فتزيده جمالاً وروعة ، فهى مصاحبة أو تصوير[1] . فما اللحن فى الحقيقة إلا تعبير بدلالات صوتية مدلولاتها خوالج وخواطر وأخيلة جالت فى نفس ملحنه ، أو استعارتها نفسه من كلام لغيره ، من لغواه ودقائق معانيه وما تصف . ومن هنا نظروا إلى اللحن الذى يعبّر هـذا التعبير ، ويصور هذا التصوير ، نظرهم إلى الكتابة فقالوا : الإنشاء الموسيقى ، وميزوا بين إنشاء موسيقار وإنشاء موسيقار آخر ، وعرفوا لكل طابعه الخاص

* * *

الفهم المستمع إلى موسيقى جيدة ، لا يصاحبها غناء ، تصل ألحانها إلى سمعه غير مقيدة دلالاتها الصوتية ، أى معانيها ، بدلالات لفظية . ولذا تجد نفسه بعض الحرية فى فهم هذه الألحان الموسيقية التى تحرك فى وجدانه خوالج وأحاسيس ، وتثير تداعى الصور فى مخيلته والخواطر فى ذهنه ، فتذهب روحه مذاهبها فى تأويل الدلالات الصوتية ؛ فإذا سكنت إليها طرب ووجد الأريحية ، وإذا هو آنس منها ما يعيب اللحن أو العزف أو لم يفهمها ، أو لم توافق طبعه ، فإنه لا تأنس إليها روحه ، وعلى قدر موافقتها وسلامتها أو عيوبها يكون الاكتراث لها ، أو الاستكراه والنفور منها

أما الغناء الذى تصاحبه الموسيقى ففيـه الدلالة اللفظية تفرض تأدية معان معينة ، هى معانى الكلام المغنّى ، على الدلالتين الصوتيتين : دلالة الغناء ودلالة العزف الموسيقى معاً ؛

---

(١) كذلك الكاتب ، يفكر فى موضوعه ويشحذ له ذهنه وقريحته ، ويهيىء نفسه حتى يتصوره قائم البناء سوى الهندسة ، قبل أن يمسك القلم لكتابته ؛ فإذا كتب بعدئذ أجاد على قدر ملكاته ، ومعلوماته وأدواته ؛ أو هو يرقم لكتابة موضوعه — من مقال طويل أو رسالة أو سفر — منهجا يرتب فيه مقاصده وأغراضه ويحكم الارتباط والتعاق والنسبة بينها ، ليكون تحت نظره كالرسم الذى يضعه المهندس ليبنى على مثاله ؛ فقد رأى بعضهم أن للكتابة ثلاثة أركان : أولها الاختراع ، وهو التفكير فى الخواطر والأحاسيس التى تكون للمقاصد والأغراض ، كالمواد الداخلة فى البناء . وثانيها الترتيب ، ترتيب هـذه المقاصد والأغراض فى منهج كالرسم للبناء . وثالثها العبارة ، وهى الكتابة والانشاء فى الموضوع بالأساليب البيانية لتزيين صرحه كزخرفة البناء بأنواع الطلاء وغيره . فإذا كانت المواد جيدة وهندسته جميلة زادته الزخرفة جمالا وإلا ضاعت فيه .

(٢) ولقد جاز أن يقال إن الفن إلمام من تلك البواعث المستكنة فى نفس الفنان ؛ وبالنظر إلى أصناف التحف الفنية ، وهى ثمرة نفوس الفنانين ،

= صح ما أورد ناقد فاضل ضمن مقال له فى العدد الأسبق من الرسالة أو ما قبله ، من أن الفن هو « صورة الكون فى نفس إنسان » وهو « تبلور الحياة فى حس فنان » .

(١) Harmonie

فلا بد من المطابقة والائتلاف التام بين هذه الدلالات الثلاث حتى لا يُنكر نبوُّ إحداها ونشاز الأخرى صفاء اللحن ونقاء الغناء والموسيقى جميعاً

* * *

والكلام الذي يغنّيه المغنّي بمصاحبة الموسيقى يصل مع صوتيهما إلى آذان المصغين البصيرين، ويتمكّن معناه اللفظي يقيناً في أذهانهم فيقيد حرية نفوسهم كل التقييد، في فهم تينك الدلالتين الصوتيتين فهماً يغايره، وبذلك يمنعهم من تأويلهما تأويلاً يجعل لهما وقعاً عندهم؛ فإذا لم يكن الائتلاف تاماً بين معاني كلام الأغنية ومعاني لحنها وغنائها ومعاني موسيقاها حال هذا العيب الشنيع دون الطرب؛ وربما سبب الاستكراه والنفور ولو جاد العزف الآلي وصوت المغني

والمستمع السليم الذوق قد لا يحلل بعقله ما يسمع من الغناء والموسيقى مثل هذا التحليل، ولكنه لا يطرب من غناء وموسيقى تتنافر فيها تلك المدلولات اللفظية والصوتية؛ لأن عقله الباطن يدرك تنافرها، أو لأنها لا توافق مزاجه الروحي، وإن لم يكن بينها تنافر، أو لعدم وضوح معانيها له، ومدار ذلك كله هو الإدراك والذوق

* * *

ولكن الحقائق المتقدم بيانها ما مبلغ علمنا بها يا ترى؟ وهل يُلتفت إليها في بلادنا؟ الجواب في الكلمات الآتية في الأعداد التالية، وحسبنا الآن إشارة

لما دال الدهر القلّب، وعمّت أسباب الانحطاط على الشرق، وتفشّاه الجهل، وذهبت الأخلاق، وضاعت فيه الآداب والفنون، لم يبق بعدها من الغناء والموسيقى، في الفترة المديدة التي سبقت بدء النهضة المصرية، سوى بقايا ضئيلة ههنا وثَمّ، مسّتها الأسواء ولمّا نمعن في البحث عنها وعن أصولها وضوابطها، ولم نُحسن الاعتناء بما بين أيدينا منها، ولم ندرك ماهيتها ونبني عليها؛ وليس لنا بد من طور آخر نقضيه متلمسين الفن الحق، متعثرين في سبله

نعم، فإن كثيراً من الملحنين والمغنين والموسيقيين والمستمعين — بقطع النظر عن الأقليات التي تدخل في باب الاستثناء — لا يزالون عندنا من بيئات دون الوسطى، ضئيل محصولهم، أولية عقولهم، ساذجة نفوسهم، سقيمة أذواقهم. وقصارى البارع من هؤلاء الفنانين أن يتقن تقليد ما ترك الجيل السابق، أو أن يعبث بشيء من بعض آثار القدماء، أو أن يمسخ الفن بما يزعم أنه تجديد وابتكار. وكثير من النقاد مثلهم ولم يفطنوا لمواطن الأدواء، فليس في مقدورهم أن يصفوا الدواء، وتقدم مفترض يساير الشهي ويتحرى مظان المنفعة، وخيره أقل من شره، ولو تنزه وصح لكان في مصلحتهم ومصلحة الجميع على السواء.

محمد توحيد السلحدار